كامل عيّاد

١٩٠١–١٩٨٦

كامل عياد مثقف سوري كبير من أصل ليبي. كتب كثيراً. وحاضر كثيراً. ومارس التدريس في عدة جامعات عربية. وتميزت أبحاثه الفلسفية والتاريخية والاجتماعية بالدقة وبالموضوعية، وبالثقافة العلمية الواسعة. وكان، منذ ثلاثينات القرن الماضي، واحداً من كبار التنويريين العرب المعاصرين، بالمعنى الذي يشير إلى الأفكار الجيدة التي كان عدد غير قليل من المثقفين العرب قد بادروا إلى نشرها منذ مطالع القرن العشرين. وهي أفكار تنتمي إلى الاشتراكية بمدارسها المختلفة، بما فيها المدرسة الماركسية، من دون أن يقترن ذلك، بالضرورة، بانتساب أصحاب تلك الأفكار إلى أي من الأحزاب التي كانت تتبنى الاشتراكية كمرجعية فكرية لها وكمشروع سياسي للتغيير. إذ كانوا، في معظمهم، أصدقاء للأحزاب الشيوعية الناشئة. وكان بعضهم ينتمي عضوياً إلى بعض تلك الأحزاب، مع احتفاظهم بحريتهم المطلقة في التفكير وفي الاجتهاد وفي الفكر.

ورغم الأهمية الكبيرة التي تشير إليها دراسات كامل عياد وعدد من أقرانه في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق، فإن النسيان قد غمرها. وهذا، لعمري، واحد من جوانب الخلل في تعاملنا مع تراثنا الذي، بالانطلاق منه وبالاستناد إليه، نستطيع أن نتابع بحثنا عن الطريق الذي علينا أن نسلكه لتحقيق نهضتنا المستعصية. وهذا التراث الحديث، الممتد من أوائل القرن العشرين حتى منتصفه، ما هو إلاَّ تواصل، في ظروف تاريخية جديدة، مع تراث عصر النهضة في القرن التاسع عشر. وهو العصر الذهبي الأول في حركة الفكر في بلداننا. وهو، في تقديري، لم يحظَ بما يستحقه من الاهتمام، بحثاً واستنتاجاً في خدمة حركة النهضة، إلاَّ في القليل النادر من الأبحاث والدراسات، رغم كثرة تلك الأبحاث.

وُلد كامل عياد في مدينة طرابلس الغرب (ليبيا) في عام ١٩٠١. وتوفي في دمشق في عام ١٩٨٦. ورغم أنه وُلد في ليبيا فإنه غادر الحياة كمثقف سوري كبير، من دون أن يعرف حتى الكثيرون من أقرب أصدقائه إليه أنه ليبي. وكنت من بين هؤلاء. إذ كنت قد تعرفت إليه في

مطالع ستينات القرن الماضي، من خلال مشاركته في الاجتماعات والمؤتمرات التي كان يعقدها مجلس السلم العالمي. ثم استمرت علاقتي معه ولقاءاتي به حتى السبعينات في دمشق، كلما كنت أزورها. وكان من بين زملاء كامل عياد الذين نشأت بيني وبينهم علاقة صداقة في تلك الفترة كل من الدكتور نظيم الموصلي والدكتور عبد الكريم اليافي. وهما أستاذان جامعيان يشير إليهما كامل عياد في كتاباته مع آخرين من زملائه في الفكر والبحث والتدريس الجامعي. وكان هؤلاء كثيرين. وكانوا من كبار المفكرين والعلماء من أمثال الدكتور محمد كردعلي والدكتور جميل صليبا.

لنقرأ في السطور التالية ملخص سيرته التي كتبها بقلمه في عام ١٩٦١:"وُلدتُ سنة ١٩٠١ في طرابلس الغرب (ليبيا). ولمّا اضطر والدي الشيخ علي عياد إلى الهجرة من البلاد أثناء الغزو الطلياني لطرابلس سنة ١٩١١ استصحبني معه إلى تركيا، فتابعت دراستي في استانبول، ثم في مدينة حلب. وفي سنة ١٩٢١ سافرتُ إلى ألمانيا وبدأت الدراسة في جامعة برلين. كما اشتغلت بالصحافة. واشتركت في تأسيس مجلة بالعربية اسمها "الحمامة"، وجريدة بالألمانية تحت اسم "صدى الإسلام". وقد حصلت على شهادة الماجستير في الآداب، والدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٣٠. وعدتُ إلى دمشق، وأخذت أعمل في الصحافة إلى أن عُيِّنتُ سنة ١٩٣٣ مدرِّساً للتاريخ في المدرسة التجهيزية (الثانوي) بدمشق. وفي سنة ١٩٣٦ سافرت إلى بغداد، حيث قمت بتدريس تاريخ العرب والإسلام في دار المعلمين العالية لمدة ثلاث سنوات. وفي سنة ١٩٣٩ رجعت إلى التدريس في المدرسة التجهيزية ودار المعلمين الابتدائية بدمشق. وفي سنة ١٩٤٤ عُيِّنتُ عضواً في لجنة التربية والتعليم (إدارة البحوث). ولمّا أُسِّست كلية الآداب في جامعة دمشق عُيِّنتُ أستاذاً مساعداً للتاريخ اليوناني. ثم انتقلت في سنة ١٩٥٠ إلى كلية التربية أستاذاً لتاريخ التربية. وفي سنة ١٩٥٢ انتدبتُ للعمل في الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية. وقد انتُخبتُ في سنة

١٩٥٨ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية). نشرتُ في برلين سنة ١٩٣٠ أطروحتي باللغة الألمانية عن "نظرية ابن خلدون في التاريخ والاجتماع". واشتركتُ في تأسيس مجلتي "الثقافة و"المعلمين والمعلمات" بدمشق، ونشرتُ فيهما كثيراً من المقالات. كما كنت سكرتيراً لمجلة "كلية التربية". كذلك اشتركت مع بعض الزملاء في تأليف سلسلة من الكتب المدرسية التاريخية ولا سيما التاريخ القديم. ونشرت بالاشتراك مع الزميل الدكتور جميل صليبا: "مختارات من ابن خلدون"، وكتابي "حي بن يقظان" لابن طفيل، و"المنقذ من الضلال" للغزالي. كما اشتركتُ معه في تأليف كتاب "المنطق وطرائق البحث العلمي". وكنتُ نشرتُ في سنة ١٩٤٢ كتاب "علم الأخلاق". وفي سنة ١٩٥٨ ترجمتُ بتكليف من منظمة اليونسكو رسالة عن (كتب التاريخ المدرسة والتفاهم الدولي)، وقد نشرت في عدد خاص من مجلة "المعلم العربي" بدمشق. وهناك مقالات ومحاضرات كثيرة نُشرت في مختلف المجلات".

هذه السيرة لا تعبِّر عمَّا حفلت به حياة كامل عياد من نشاط فكري شمل مختلف القضايا التي كانت موضع اهتمام أهل الفكر في تلك الحقبة في سوريا وفي العالم العربي. ولذلك لا بد من استكمالها بما قدمه كل من صديقه وزميله الدكتور جميل صليبا، وما كتبه عن مرحلة ألمانيا في حياة كامل عياد البروفسور الألماني كرهارد هيب، وما أتيح لي أن أعرفه منه وعنه في كتاباته وفي مساهماته في تأسيس ثلاث مجلات لبنانية وسورية هي: الثقافة (١٩٣٤) الطليعة (١٩٣٥ . ١٩٣٩) والطريق (١٩٤١).

في عام ١٩٥٨ كُلِّف الدكتور جميل صليبا بتقديم صديقه الدكتور كامل عياد إلى أعضاء المجمع العلمي في الجمهورية العربية المتحدة، ليكون عضواً فيه، بعد أن كان قد انتُخب في وقت سابق عضواً في المجمع العلمي العربي قبل الوحدة المصرية . السورية. وشمل ذلك التقديم عرضاً لسيرة حياة كامل عياد في شكل عام ولسيرته الفكرية في شكل أكثر تحديداً. ويشير

صليبا، في مستهل حديثه، إلى أن والد كامل عياد (الشيخ علي عياد) كان أول مَنْ مال من أسرته إلى العلم. فأتعب نفسه في تحصيله حتى بلغ منه مُناه. أما والدته فكانت من بني المسعودي. وهي عائلة مشهورة في طرابلس الغرب، أدباء وفقهاء. ويضيف صليبا بأن والد كامل اضطر إلى الانتقال إلى اسطنبول في تركيا عندما أغارت إيطاليا على ليبيا في عام ١٩١١. واستقر هناك. فعينته الدولة العثمانية حاكماً على منطقة مرجعيون جنوب لبنان، ثم رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية في حلب. وظلَّ يتنقل من منصب إلى آخر، إلى أن استقر به المقام كعضو في محكمة التمييز في دمشق بعد خروج العثمانيين من سوريا، في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ويشير الدكتور صليبا هنا إلى الأثر الذي تركته في نشأة كامل عياد وفي تكوُّن شخصيته سيرة والده والأحداث التي حفلت بها تلك الحقبة من تاريخ المنطقة. ويسرد صليبا تفاصيل عن المرحلة الأولى من دراسة كامل عياد في تركيا وسوريا وفلسطين قبل أن ينتقل في عام ١٩٢١ إلى ألمانيا، كما يشير إلى ذلك كامل نفسه في سيرته بقلمه. ويتوقف صليبا بعد ذلك عند المرحلة التي أصبح فيها كامل عياد باحثاً معروفاً في الفلسفة وفي التاريخ. ويشير إلى أطروحة الدكتوراه عن فلسفة ابن خلدون التي كانت برأي صليبا البداية المميزة في بروز اسم كامل عياد كمفكر مبدع من الدرجة الأولى. ويعلِّل صليبا ذلك بذكر المفاصل الأساسية في تناول عياد لفكر ابن خلدون التاريخي . الاجتماعي. ثم يعدد أوجه النشاط التي كان هو، أي صليبا، شريكاً له فيها، في المجلات التي كتب فيها وشارك في تأسيسها. ثم يتحدث بعد ذلك عن بعض النماذج من أبحاثه التي يتناول فيها عياد تطور الحضارة الحديثة والأسس التي تقوم عليها. وهي العلم والبحث العلمي المستندين إلى المشاهدة والتجربة والتأمل العقلي. فهذان العلم والبحث العلمي والشروط التي يتمان فيها هما اللذان يحققان للمجتمعات تطورها الاقتصادي

والاجتماعي. وهما اللذان أعطيا للحضارة العالمية الحديثة أهميتها التاريخية. ويستشهد صليبا في موضوع الحضارة وفي فهم عياد لها ببعض الفقرات المأخوذة من بعض محاضراته.

يقول عياد في محاضرة له حول مستقبل الثقافة العربية:"لاحظ العرب منذ أوائل القرن التاسع عشر ما تمتاز به الحضارة العربية من وسائل القوة المادية. وأدركوا أنهم لن يستطيعوا مقاومة الاستعمار الغربي إلاَّ باصطناع الوسائل ذاتها. من هنا دعا مفكرو البلاد العربية إلى ضرورة اقتباس الثقافة الحديثة، لأنها أساس النهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية... إن الحضارة الحديثة هي التي تسيطر اليوم على العالم. ولا سبيل لأي شعب أن يحافظ على كيانه دون مجاراة هذه الحضارة... هناك فئة تسمي نفسها بالمعتدلة، تريد أن يقتصر الاقتباس على محاسن الحضارة الغربية، وعلى تلك النواحي من ثقافتها التي تتلاءم مع خصائصنا وتقاليدنا وعاداتنا. ونقطة الضعف في هذا الرأي هي الصعوبة في تحديد الصفات والتقاليد والعادات التي تختص بنا والتي يجب علينا أن نحتفظ بها والتي يجب أن نحافظ عليها، ثم الاختلاف حول المعيار الذي يميز المحاسن من المساوئ...".

ويقول في حديث له عن رسالة الجامعة:"ليس البحث العلمي مجرد مقالة فكرية مستقلة عن الزمان والمكان. والدراسة الجامعية تظل عقيمة، وتصبح عبئاً ثقيلاً إذا هي لم تجهز الشباب بالوسائل اللازمة لفهم العالم الذي يعيشون فيه، وتفسير الحوادث التي تجري حولهم...".

وينهي الدكتور جميل صليبا حديثه عن كامل عياد بالإشادة بثاقب فكر صديقه وزميله، وبعمق تحليله للأفكار وللأحداث، وبفراسته وبصادق إحساسه، وبقدرته على النظر إلى الأشياء من جوانبها المختلفة، وبأنه بعيد عن التقيد بالعادات والتقاليد، وبأنه يعتقد بأن كل شيء في الحياة يتبدد ويتغير ويرتقي من حال إلى حال. وفي هذه الصفات يكتسب كامل عياد تميزه كمفكر فلسفي وكعالم تاريخ واجتماع من الطراز الرفيع.

أما البروفسور الألماني كرهارد هيب فيتناول المرحلة الألمانية من حياة ودراسة ونشاط كامل عياد. ويمهد هيب لحديثه عن عياد بالإشارة إلى أنه كان واحداً من مجموعة كبيرة من الشباب الذين قدموا في عشرينات القرن الماضي من بلدان آسيوية وأفريقية لتلقي العلم في جامعات ومدارس ألمانيا مستفيدين من ظروف مالية ملائمة لم تكن متوفرة في بلدان أوروبية أخرى، أهمها سعر صرف العملة الصعبة مع بداية التضخم النقدي الذي كان قد بلغ ذروته في ألمانيا. ولم يقتصر نشاط أولئك الشباب على اكتساب المعارف العلمية والمهنية. بل تعداه إلى اكتساب الخبرات والرؤى السياسية، التي استفادوا منها فيما بعد في نضال شعوبهم ضد الكولونيالية. وكان من بين أولئك الشباب، إضافة إلى كامل عياد، عصام حفني ناصف وعلى العاني وعبد الفتاح محمد من مصر، ومحمد علي الحامي من تونس، الذي أسس في تونس في عام ١٩٢٤ اتحاداً نقابياً وطنياً. ويتوقف هيب عند أهمية اختيار عياد كلية الفلسفة . قسم الاجتماع، معتبراً ذلك حدثاً مثيراً وحالة استثنائية، بالمقارنة مع الآخرين الذين اختاروا الكليات والمعاهد التطبيقية. ذلك أن العلوم الاجتماعية، كما يشير إلى ذلك هيب، كانت من العلوم التقدمية، الجديدة في أوروبا في ذلك التاريخ. وزاد من أهمية خيار عياد لموضوع دراسته الجامعية اهتمامه بمواد التاريخ والفلسفة والاقتصاد والإسلاميات. وعزَّز اهتماماته الأكاديمية بدراسة اللغة الألمانية وإتقانها. ويقول هيب أن عياد، الذي كان قد بدأ يمارس نشاطه السياسي، قد اختير في عام ١٩٢٥ ليكون رئيساً لجمعية الطلاب العرب. وكان نشاط الجمعية تعبيراً صريحاً عن المشاعر المناهضة للاستعمار في أوساط الطلاب العرب. وجهدت الجمعية لكي يكون ذلك مفهوماً من الأوساط الطلابية الألمانية. وقامت بنشاطات واسعة في دعم الثورة السورية التي كانت قد بدأت في ذلك التاريخ (١٩٢٥-١٩٢٧). وكان من أبرز نشاط الجمعية تحريض الطلاب العرب والألمان والأجانب القادمين من بلدان أخرى على استنكار الجرائم التي

كانت ترتكبها القوات الفرنسية ضد الشعب السوري وضد ثورته الوطنية. ويذكر هيب من بين نشاطات الجمعية الحفل الذي أقيم تكريماً للأمير شكيب أرسلان، السكرتير العام لوفد المؤتمر السوري الفلسطيني في جنيف مقر عصبة الأمم. وقد ركَّز شكيب أرسلان في خطابه على الاستعمار الفرنسي في سوريا ومراكش. كما دعا إلى وحدة الشعوب العربية.

ويقول هيب، في سياق حديثه عن عياد، بأن الموقف السياسي الذي سارت عليه الجمعية بقيادة عياد قد جعلها تشارك في تأسيس "الجامعة الألمانية ضد الاضطهاد الكولونيالي". وقد ظهرت إلى الوجود في عام ١٩٢٦ في برلين، بمشاركة عدد من المنظمات والشخصيات الألمانية والأجنبية ومن بينها جمعية الطلاب العرب واتحاد الطلاب العرب. ويذكر هيب أن الأعمال المناهضة للكولونيالية بلغت ذروتها في مؤتمر مناهضة الاضطهاد الكولونيالي الذي عقد في بروكسل في عام ١٩٢٧، من دون أن يشارك فيه أحد من الطلاب العرب في برلين. إلاَّ أنَّ الوفد السوري الذي كان يشارك في المؤتمر اختار أحد أعضائه مظهر البكري ليزور برلين بعد اختتام أعمال المؤتمر حيث ألقى سلسلة محاضرات بدعوة من جمعية الطلاب العرب التي كان قد أعيد انتخاب كامل عياد رئيساً لها. وكان الوفد السوري إلى مؤتمر بروكسل مشكَّلاً من إحسان الجابري ورياض الصلح، إضافة إلى مظهر البكري.

وينهي هيب حديثه عن عياد بالإشارة إلى أهمية أطروحته. ففي شهر تموز من عام ١٩٢٨ تقدَّم كامل عياد إلى عميد كلية الفلسفة بطلب تسجيل موضوع أطروحته بعنوان "التعاليم التاريخية والاجتماعية لابن خلدون". وانتهى من كتابتها والدفاع عنها في أواخر شهر شباط من عام ١٩٢٩. وتشير المقدمة التي كتبها عياد لكتابه إلى الأسباب التي دفعته للاتجاه نحو ابن خلدون، فيقول:"في الفترة الأخيرة بدأت تظهر في الشرق، إلى جانب حركة الحرية السياسية

بعامة، حركة النهضة الفكرية، التي تجلت في الاهتمام بالكنوز الثقافية للماضي. لذلك فإن عمل ابن خلدون وشخصيته يحتلان مكان الصدارة في هذا الاهتمام".

هذه المصادر الثلاثة لسيرة كامل عياد، بما فيها التي كتبها عياد بقلمه، تمر مروراً عابراً على المرحلة التي كان فيها مساهماً أساسياً وشريكاً في إصدار ثلاث مجلات سورية ولبنانية، أو سورية ـ لبنانية. الأولى هي مجلة "الثقافة" التي اشترك في إصدارها مع صديقه جميل صليبا في عام ١٩٣٣. ولم تعش أكثر من عام واحد. الثانية هي مجلة "الطليعة" التي اشترك مع عدد من المفكرين اللبنانيين والسوريين في إصدارها وفي الكتابة المتواصلة فيها على امتداد سنواتها الخمس (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩). المجلة الثالثة هي مجلة "الطريق" التي أسسها أنطون تابت في عام ١٩٤١، وكان عياد شريكاً في هيئة تحريرها مع عمر فاخوري ورئيف خوري ويوسف ابراهيم يزبك وقدري قلعجي وأنطون تابت. وقد لعبت المجلات الثلاث دوراً مهماً في طرح قضايا أساسية فكرية وعلمية واجتماعية وثقافية عامة، وإثارة النقاش حولها. وكانت منابر مفتوحة لكل المثقفين من مختلف المدارس والتيارات. وكان كامل عياد من أكثر المساهمين في طرح هذه القضايا ومن أكثر المساهمين في الجدل الذي أثير حولها.

إلاَّ أن عياد لم يكتفِ بالكتابة في تلك المجلات. بل هو شارك في الكتابة في العديد من المجلات الأخرى. وتلك المجلات هي: مجلة "المعلم الجديد" العراقية، ومجلة "الأبحاث" اللبنانية، ومجلات "المعرفة" و"النقاد" و"المعلم العربي" السورية، فضلاً عن المجلة التي كان يصدرها مجمع اللغة العربية في دمشق. ولا شك أنه ساهم في الكتابة في مجلات عربية وأجنبية أخرى خلال سفراته التي شملت العديد من البلدان، إما لحضور مؤتمرات ثقافية، أو لإلقاء محاضرات، أو للتدريس في جامعات مثلما حصل في بغداد. وقد شملت زياراته إلى الخارج في مهمات ثقافية كلاً من الاتحاد السوفياتي وألمانيا ورومانيا وفرنسا وبولونيا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وإسبانيا

وسويسرا. وساهمت جميع تلك السفرات الثقافية في إغناء معارفه وتوسيع ثقافته وتعميق قناعاته الفكرية، لا سيما منها ما يتصل بإيمانه بالاشتراكية. وكان صديقاً للحزب الشيوعي السوري اللبناني، قبل أن ينفصل الحزبان. وظلَّ صديقاً لكليهما بعد الانفصال.

أما كتاباته الفكرية فقد كانت واسعة الآفاق، متعددة الجوانب. إلاَّ أنها لم تصدر كلها في كتب. ولعل الكتاب الأول عن فكر ابن خلدون التاريخي الاجتماعي هو أهم كتبه. أما كتبه الأخرى فكانت في معظمها كتباً مدرسية. لكنها كانت تحتوي على خلاصات أفكاره. وكانت في معظمها كتباً تاريخية وفلسفية. كتب التاريخ هي: "كتاب التاريخ"، "تاريخ الشرق القديم"، "تاريخ العصور القديمة"، "تاريخ اليونان". أما كتب الفلسفة فهي: "المنطق وطرائق العلم العامة"، بالاشتراك مع جميل صليبا، "علم الأخلاق"، "مختارات من ابن خلدون" مع مقدمة، "حي بن يقظان" لابن طفيل مع مقدمة بالاشتراك مع جميل صليبا، "المنقذ من الضلال" للغزالي مع مقدمة بالاشتراك مع جميل صليبا. وله كتيِّب يضم مقالين: الأول عن مكسيم غوركي والثاني عن عمر فاخوري.

إلاَّ أنَّ مقالاته وأبحاثه التي نشرها في المجلات العربية حول مجمل القضايا الفكرية في الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وفي السياسة والأدب وفي الاستشراق فهي التي تشكل المرجع الأساسي لفكره. وقد أحسن الكاتب السوري محمد كامل الخطيب صنعاً بإصدار كتاب من جزئين بتكليف من وزارة الثقافة السورية يتضمنان منتخبات من كتابات كامل عياد، تشير إلى همومه واهتماماته الفكرية المتعددة. ولذلك فإن هذا الكتاب بجزئيه هو أفضل مرجع يمكن الركون إليه لمعرفة فكر كامل عياد بجوانبه المختلفة.

وسأحاول هنا أن استعرض بكثير من التكثيف بعض أفكار كامل عياد التي لا يمكن الحديث عنه من دون الإشارة إليها ولو في شكل عابر.

يقول عياد في بحث يحدد فيه مفهومه للأزمات نشر في مجلة"الثقافة" في عام ١٩٣٣: "ولعلَّ أول من فكَّر في تعليل الأزمات التاريخية بصورة عامة هو ابن خلدون الذي نعده بحق مؤسس فلسفة التاريخ والاجتماع بالمعنى الحديث". ويتابع في المقال ذاته: "أما العوامل الحقيقية المؤثرة في هذا التطور فإنما هي على رأي ابن خلدون، في الدرجة الأولى، شروط الحياة الاقتصادية. ولا شك في أن ابن خلدون من الذين سبقوا كارل ماركس إلى الفكرة الأساسية في نظرية المادية التاريخية التي تجعل للاقتصاد، أي للمادة، المقام الأول في تكييف حياة البشر. وقد قال ابن خلدون:" إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش". أي أن تطور الأوضاع الاجتماعية والتاريخية تابع لتبدل الشروط في الحياة الاقتصادية. وهذه النظرية التاريخية تقصر كل همها على الأزمات الاقتصادية ولا ترى في الأزمات السياسية والاجتماعية والفكرية بل والدينية أيضاً سوى نتائج طبيعية للأزمة الاقتصادية. فالأزمات التاريخية في نظر ابن خلدون ليست من آثار المصادفات أو من دلائل النقمة السماوية، بل إنها خاضعة لقوانين طبيعية عامة، ويمكن تعليلها كنتيجة محتمة وظاهرة لا مناص منها في مجرى التطور التاريخي. يرى ابن خلدون أن الأمم إذا دخلت في طور الحضارة الذي يعتبره آخر مراحل سيرها، فلا بد أن تجتاحها الأزمات المتعاقبة إلى أن تضمحل قواها الحيوية وتتدهور في هاوية الهلاك. وهو يعلِّل ذلك تعليلاً اقتصادياً بحتاً، فيقول إن تفنن الأمصار في الحضارة يزيد من نفقات أهلها وارتفاع الأسعار في أسواقها، ثم يزداد الغلاء بكثرة المكوس التي تضعها الحكومات في عهد استفحال الحضارة. وهكذا تعظم نفقات أهل العمران وتخرج عن القصد إلى الإسراف. ونتيجة ذلك، بطبيعة الحال، كساد السواق وفساد المدينة. (أنظر: فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره)".

لكن فكر كامل عياد التاريخي يبرز بوضوح أكثر في بحثه الطويل الذي نشره في عام ١٩٧٦ في مجلة مجمع اللغة العربية تحت عنوان "عبر التاريخ". يقول في هذا البحث:"إن موقف الشعوب من تاريخها يشبه موقف الأفراد من ذكرياتهم الماضية. فالشعوب الفتية لا تهتم إلاَّ بالمستقبل وتنصرف في الحاضر إلى تكوين ذاتها وبناء حضارة جديدة. وحين تتوقف هذه الشعوب عن النمو والتوسع والإبداع تتجه إلى الماضي وتتغنى بأمجاده أو تدعو إلى إحيائه والرجعة إليه. وأكثر الناس تعاسة هم أولئك الذين لا يعرفون إلاَّ القليل من التاريخ لأن المعرفة المشوهة والثقافة الناقصة أكثر الأمور خطراً وفساداً. فمن الأفضل أن نسعى إلى الوعي التام الواضح، وأن ندرس التاريخ لنعرف: من نحن؟ إلى أي مرحلة من التطور وصلنا وفي أي طريق نسير؟... إنَّ حياة البشر، سواء كانوا أفراداً أو جماعات أو شعوباً، ليست سوى سلسلة متصلة الحلقات يتبع بعضها بعضاً. ولا سبيل إلى تعليل الحوادث في أي مرحلة إلاَّ بالرجوع إلى المراحل السابقة وربط الأسباب بالمسببات والعلل بالنتائج. إننا في التاريخ ندرس كيف كانت المجتمعات البشرية في الماضي ثم كيف تطورت تدريجاً حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم. وبذلك نتوصل إلى معرفة العوامل التي أثرت في هذا التطور واكتشاف التيارات والقوى التي دفعت إليه ومازالت تدفع. كما نطلع على البواعث والحوافز والاختلافات والتناقضات التي أسهمت وتسهم في تكييف الحوادث. وبدون هذه الدراسة علينا أن نفهم الشؤون السياسية والاجتماعية عامة وأن ندرك مشاكل عصرنا واتجاهاته... مثلما أن التاريخ ضروري لفهم الحاضر فهو كذلك لا بد منه للاعتياد على التفكير الواقعي. وبينما نتعلق في العلوم الطبيعية والرياضية بالمفاهيم المجردة والأحكام المطلقة فإننا في التاريخ نبحث الموضوعات الإنسانية المعقدة بصورة مشخصة وضمن شروط زمنية ومكانية معينة، ونتعلم بذلك معنى النظرة النسبية. إذ نرى كيف أن جميع الأحداث يرتبط بعضها ببعض ويؤثر أحدها في الآخر، وأن أحوال البشر في تطور دائم، وأن كل حالة

ليست سوى مرحلة في طريق لا تنتهي، وأنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة الموضوعية المطلقة ومعرفة الأحداث التاريخية كما جرت فعلاً، وإنما نحكم عليها من وجهة نظر محدودة، وبالنسبة إلى الظروف المتقلبة".

ويحدد في مقال له نشر في مجلة "الطليعة" في عام ١٩٣٦ مفهومه للسياسة، بخلاف السائد والشائع لهذا المفهوم، وذلك بكلام واضح وقاطع، بعد أن كان قد أعلن في مقال سابق في المجلة ذاتها عن اقتراب الثورة من عالمنا العربي والشرقي. إذ يصرخ: "إنها الثورة الحقيقية التي لا تجدي أية وسيلة ضدها. لقد بدأت الجماهير في الشرق تتحرك". يقول في مقاله الآنف الذكر بعنوان "مهنة السياسة": "وبالعقيدة قبل كل شيء يمتاز السياسيون الذين يرتفعون إلى مصاف رجال الدول العظام على أشباه الرجال الذين لا يعرفون من السياسة إلاَّ الدسائس والكذب والنفاق وجر المغانم وخداع الناس والتمويه عليهم... فإنه من دون الاعتقاد بمبدأ مسالم والإيمان بقضية علمية لا يستطيع السياسي أن يسمو فوق مستوى المتاجرين الذين يمتهنون السياسة". وينهي مقاله بالكلمات التالية: "يجب أن تنقلب السياسة من مهنة إلى رسالة". حينئذ تصبح السياسة جهاداً مستمراً شاقاً. ينبغي أن تقوم على الحماسة والهدوء معاً، وأن تستند إلى التاريخ الذي يعلمنا أن الرجال الذين تقاعسوا عن طلب المستحيل لم يتوصلوا حتى إلى الممكن".

ويتناول موضوع الحرية في بحث طويل تحت عنوان "حرية الفكر"، انطلاقاً من القلق الذي كان يساوره ، كمثقف ديمقراطي يساري ملتزم، إزاء حالتين، الحالة المتمثلة بالمؤامرات الاستعمارية على بلداننا، والحالة المتمثلة باضطهاد الحرية والأحرار من قبل أنظمة الحكم فيها. يقول في هذا البحث الذي نشره في مجلة "الثقافة الوطنية" اللبنانية في عام ١٩٥٤: "في هذا الوضع المشحون بالأحداث . حيث نرى كل يوم خيوط مؤامرة استعمارية جديدة تحاول تطويق عالمنا العربي . يعاني الفكر في بلادنا مأساة الكبت والاضطهاد، ويصارع بكل ما فيه من عزم

الحياة، قوى الظلام هنا وهناك، ويناضل وسط كل ضروب الآلام من أجل حريته، من أجل حرية هذه البلاد العربية..".

على أنه يتوقف في سياق البحث ليناقش مفهوم الحرية. ويتساءل عن أي حرية يجري الحديث. ويقول: "إذا نحن لم نحدد مفهوم الحرية فإننا لا نأمن أن ينقلب إلى عكسه. ونحن إذا سمعنا من يدافعون عن الحريات كلها، على وجه الإطلاق، فمن حقنا أن نتساءل: ألا يقصدون بذلك حرية الأثرياء في استعباد الضعفاء،أو حرية أصحاب الأموال استثمار العمال، أو حرية الاحتكار وحرية الاتجار بالرقيق الأبيض؟... ثم ماذا يفيد الإنسان أن نقول له أنت حر تستطيع أن تفكر كما تشاء دون أن نهيء له الوسائل المادية لهذه الحرية. ونجعله قادراً على جمع المعلومات الصحيحة اللازمة، ونفسح له المجال للتعبير عن آرائه ونشر أفكاره؟ ما الفرق بين ذلك وبين القول للعاطل عن العمل: أنت حر في أن تموت من الجوع".

وفي حديثه عن الفلسفة وعن دورها يقول في مقال نشر في مجلة "الطليعة" في عام ١٩٣٥ تحت عنوان "الفلسفة والحياة: ماذا تفيد الفلسفة": "... إن كل معرفة تبدأ في الواقع بالفلسفة. وتنقلب إلى علم حتى انتهت بنا إلى نتائج معيَّنة واضحة. وكل واحد من العلوم كان جزءاً من الفلسفة، ثم أصبح في الأخير قاعدة لصناعة عملية. فمراحل المعركة البشرية ثلاث: فلسفة . علم . صناعة... إننا إذا أمعنا النظر نرى أن الفلسفة هي أساس جميع العلوم. بل هي أصل كل معرفة، ومبدأ كل تقدم فكري".

ويتابع عياد في المقال ذاته:"... إن تجاربنا الأولى في الحياة تسوقنا إلى الشك في قيمة هذه الحياة. نرى أموراً كثيرة لا معنى لها. فنضطرب، ويستولي علينا القلق. ولكن هناك قوة في صميمنا تدفعنا إلى الاعتقاد بأن حياتنا ليست عبثاً. بل لها معنى وغاية، وإنه يجب علينا مكافحة

القلق والخروج من الفوضى. وكم من الشباب يقولون مثل "ميتيسا" في كتاب "الأخوة كرامازوف" لدستويفسكي: إننا لا نشتهي الملايين من المال. بل نريد جواباً على أسئلتنا وحلاً لمعضلاتنا".

ويعالج موضوع الاستشراق في سلسلة من المقالات تشكل كتاباً، لكنه لم ينشرها في كتاب. وقد وضع لهذه المقالات عنواناً عاماً هو "عن الغرب والاستشراق". ثم قسَّم أبحاثه إلى عدة عناوين تناول فيها أساس نشوء الاستشراق، مستعرضاً بداياته من إيطاليا إلى فرنسا إلى ألمانيا وسواها من الدول، ومبيناً الدوافع العملية والسياسية وراء إندفاعة كل مستشرق في بلده. وقد حاول أن يكون في تناوله للاستشراق موضوعياً، وحيادياً، وعلمياً إلى الحدود القصوى. يقول في تحديده للشروط التاريخية التي أدَّت إلى ولادة حركة الاستشراق: "إن النزعة الفعلية التي تميزت بها حركة الأنوار في القرن الثامن عشر كان لها أثر كبير في تغيير نظرة الأوروبيين إلى الشرق عامة. فقد كانت هذه الحركة تسعى، قبل كل شيء، إلى التحرر من سيطرة الكنيسة ومن القيود التي فرضتها على الحياة الفكرية. وكانت الجماهير قد عرفت الشيء الكثير عن البلاد الشرقية بفعل كتب الرحلات الحقيقية أو الخيالية التي شاعت في هذا العصر. وكان الإعجاب عظيماً بحضارة الصين خاصة. فأخذ الكتَّاب ينوهون بديانة "كونفوشيوس" وما امتازت به من حكمة وتسامح، ويستندون إلى ذلك في مهاجمة تعصب رجال الدين المسيحي. ثم اتسع نطاق الاهتمام فشمل الهند وفارس والشرق الإسلامي كله... وكانت حياة الرسول وشخصيته وتعاليمه تحتل دوماً المقام الأول بين الموضوعات التي صار يعالجها المستشرقون".

هذه اللوحة المكثفة من شخصية كامل عياد ومن أفكاره ومن استخلاصات أبحاثه في علمي التاريخ والاجتماع، تشير بوضوح إلى دور ريادي شاركه فيه عدد غير قليل من رواد الفكر العربي الحديث منذ مطالع القرن العشرين، امتداداً لدور رواد حركة النهضة في القرن التاسع عشر، وإغناءاً له في ظروف تاريخية مختلفة.